

جمالية الإيجاز عند ابن البناء المراكشي 721 هـ

Aesthetic brevity to Ibn al-Bannaa El-Marrakchi, 721 H

محمد جيلالي بوزينة*

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر) Bouzina56@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021-02-07

تاريخ القبول: 2021-04-21

تاريخ النشر: 2021/05/26

الملخص:

أسلوب الإيجاز من أهم الخصائص التي تمتاز بها اللغة العربية، ومن أهم ألوان جمالها وبلاغتها؛ يقوم عليه تركيب الجملة ليؤدي معنى بليغا مؤثرا، فالقول الموجز المركز يدل على قوة نفس المبدع وامتلاء ذهنه بعيون المعاني التي تلج إلى حبات القلوب. فقد كان العرب لا يميلون إلى الإطالة والإسهاب، وكانوا يعدّون الإيجاز هو البلاغة ويكادون يتفوقون على ذلك، ونظرا لأنّ الهدف البياني لا يتحقّق إلا بتحديد وسائله وبذكر نماذج جمالية تتبلور فيها طرق البيان حرص ابن البناء على توضيح ذلك وتفصيله ونقل ما يمكن أن يكون مساعدا على تفسيره وتيسيره، وجزءاً الحديث فيه إلى قسمين: يتعلّق الأول بالإيجاز وقد سمّاه "الاكتفاء" ويتعلّق الثاني بالإكثار وهو ما يعرف بالإطناب.

الكلمات المفتاحية: أسلوب الإيجاز - جمالية - تركيب - بلاغة - الحذف

Abstract :

The style of brevity is one of the most important characteristics of the Arabic language, and one of the most important colors of its beauty and rhetoric.

The synthesis of the sentence is based on it to lead an eloquently and influential meaning, as the concise saying indicates the strength of the creator's breath and the fullness of his mind with the meanings that enter into the hearts.

The Arabs were not favored to lengthening and elaborate, and they considered brevity to be rhetoric and almost agreed on that, besides the rhetoric goal is only achieved by determine its means and by mentioning aesthetic models in which the methods of rhetoric are take shape, Ibn al-Bannaa was keen to clarify and detail that, and shares what could be helpful in explaining it. He facilitated it, and divided it into two parts: The first part concerns brevity, he called it "sufficiency" which is brevity with deletion, and the second part relates to increase, which is known as wordiness.

Key words: style of brevity - aesthetic - syntax - rhetoric - omission.

1-مقدمة:

البلاغة كما عرّفها عامة البلاغيين "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، والحال قد تقتضي الإيجاز في القول وطيّ الكلمات وعندئذ تكون البلاغة في أن يوجز المتكلّم ويختصر كلامه، وقد تقتضي الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون في الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام¹

* - المؤلف المرسل

ويكاد البلغاء يجمعون على القاعدة التي تقول: "البلاغة الإيجاز"، وقد قيل: "عليكم بالإيجاز إنَّ له إفهاما وتجنُّبوا التطويل فإنَّ له استبهما أي غموضا" وقالوا: "قليل كاف غير من كثير غير شافٍ" ويردّدون دائما: "خير الكلام ما قلّ ودلّ"، فجميع هذه الأقوال تحكم بضرورة الإيجاز وبلاغته².

وقد قسّم ابن البناء الخطاب إلى مستويات مختلفة تراعي اختلاف مستويات المخاطبين في فهم وإدراك دلالات الخطاب الأدبي، وتراعي فيها كذلك اختلاف أغراض الخطاب بحسب مقتضى الحال، ويتجلّى ذلك في قوله الصريح: "وليس كلّ واحدٍ من الناس يسهلُ عليه الوجيزُ، ولا كلّهم لا يفهم إلاّ من البسيط، بل هم على ثلاث رتبٍ: منهم من يكتفي بالوجيز، ويثقل عليه البسيط، ومنهم من لا يفهم الوجيز بل البسيط، ومنهم المتوسط، فلذلك انقسم الخطابُ في البلاغة إلى: الإيجاز والمساواة والتطويل، وبحسب الأغراض من الخطاب أيضا، وبحسب أغراض الخطاب المختلفة بحسب الأحوال"³.

فهذا النص يمكن أن يعتبر دليلا على أنّ ابن البناء كان على وعي متقدّم بالحيشيات التي تميّز عملية تلقّي النص المبدع⁴، فهو يبيّن وجهة نظره لعملية التلقّي أنّ الناس متباينون في مستوى تلقيهم وتعاملهم مع النص الإبداعي، ومستند هذا التباين يعود إلى تفاوت خصائص المتلقّين وإمكاناتهم واهتماماتهم مما يؤثر على عملية تلقّي النص المبدع الذي يمثل مستوى راقيا من مستويات التعبير باللغة، من هذه الناحية يحقّ للدارس أن يتساءل عن نوع المتلقّي المخاطب، أو ما يمكن تسميته "المتلقّي المتضمن الفعلي"، الذي يفترضه الشاعر أو الناقد في عملية الإبداع الشعري. كما أنّ المعاني التي يعبر عنها المتكلّم أنماط تتنوّع بحسب الموضوع المعبر عنه، ولذا لا بدّ للمخاطب أن يصيب المعنى الذي يلائم المقصد الذي يبتغيه، وأن يمتلك القدرة التي تمكّنه من التعبير عن مراده، بما يقتضيه هذا المقصد، ولما كانت المعاني غير محدّدة تنوّعت أنماط التعبير عنها، وحدّد البلاغيون لكلّ نوع نمطا كلاميا مضبوطا، وما دام المتلقّون ليسوا على نمط واحد، فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوق، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به ما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب⁵.

2- الإيجاز:

أجمع البلاغيون - أو يكادون - على القاعدة التي تقول: "البلاغة الإيجاز"، وقد قيل: "عليكم بالإيجاز إنَّ له إفهاما وتجنُّبوا التطويل فإنَّ له استبهما أي غموضا" وقالوا: "قليل كاف غير من كثير غير شافٍ" ويردّدون دائما: "خير الكلام ما قلّ ودلّ"، فجميع هذه الأقوال تحكم بضرورة الإيجاز وبلاغته⁶.

وقد يُبنى البيان أحيانا على التفصيل الحقيقي، أو على الإيجاز الموحى؛ فقد انتقل ابن البناء بعد الحديث عن التفصيل في الفصل السابق إلى الحديث عن الإيجاز والإكثار وبواعثهما وعمّا يستفيد الكلام منهما سواء كان الأمر يتعلّق بالحذف أو بالتكرار، ولأنّ صناعة البيان تقتضي أن يكون الكلام مُفصّحا عن الأغراض بأحسن الألفاظ وأن يكون معربا عن المعاني بوسائل تعبيرية قد تحتاج إلى الإكثار والتكرار وقد تحتاج إلى الحذف والإيجاز والاختصار.

وأسلوب الإيجاز من أهم الخصائص التي تمتاز بها اللغة العربية، ومن أهم ألوان جمالها وبلاغتها؛ يقوم عليه تركيب الجملة ليؤدي معنى بليغا مؤثرا، فالقول الموجز المركز يدل على قوة نفس المبدع وامتلاء ذهنه بعيون المعاني التي تلج إلى حبات القلوب. فقد كان العرب لا يميلون إلى الإطالة والإسهاب، وكانوا يعدّون الإيجاز هو البلاغة ويكادون يتفوقون على ذلك، فأكثم بن صيفي رأى "أنّ البلاغة هي الإيجاز"، وكان جعفر بن يحيى يقول لكتابه: "إن قَدَرْتُمْ أن تجعلوا كتبكم توقعاتٍ فافعلوا"⁷، وفعلوا مثل ذلك في القصائد وقيل لبعضهم: "ما لك لا تزيد على أربعة و اثنين؟"،

قال: "هي بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع وصاحبها أبلغ وأوجز"⁸. والإيجاز "أن يكون اللفظ أقل من المعنى مع الوفاء به وإلا كان إخلالاً يُفسد الكلام، أو قلّة عدد اللفظ مع كثرة المعاني"⁹، وقد سأل معاوية سحرار بن عياش العبدي: "ما تعدّون البلاغة فيكم؟" قال: "الإيجاز"، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال سحرار: "أن تحبب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"¹⁰.

ونظرا لأنّ الهدف البياني لا يتحقّق إلاّ بتحديد وسائله وبذكر نماذج جمالية تتبلور فيها طرق البيان حرص ابن البناء على توضيح ذلك وتفصيله ونقل ما يمكن أن يكون مساعدا على تفسيره وتيسيره، وجزءاً الحديث فيه إلى قسمين: يتعلّق الأول بالإيجاز وقد سمّاه "الاكتفاء" ويتعلّق الثاني بالإكثار وهو ما يعرف بالإطناب، وتحدّث في القسم الأول عن الاكتفاء وهو الإيجاز بالحذف¹¹.

3- تعريف ابن البناء للإيجاز:

في تعريفه للإيجاز يتفق ابن البناء مع ما عرف في الموروث النقدي والبلاغي "البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، قائلا أنّه: "ليس كل واحد من الناس يسهل عليه الوجيز ولا كلّهم لا يفهم إلا من البسيط بل هم على ثلاث رتب: منهم من يكتفي بالوجيز ويثقل عليه البسيط ومنهم من لا يفهم الوجيز بل البسيط، ومنهم المتوسط، فلذلك انقسم الخطاب في البلاغة إلى الإيجاز والمساواة والتطويل، وبحسب الغرض من الخطاب أيضاً، وعلى ذلك جاءت القصص المتكررة في القرآن لأنّها مخاطبة للجميع، وبحسب أغراض الخطاب المختلفة وبحسب الأحوال"¹²، فالذي اقتضى هذا التقسيم عنده هو اختلاف مستويات الناس في فهم الخطاب الأدبي وإدراك مقاصده واختلاف أغراض الخطاب نفسه بحسب أحوال المخاطب.

وجاء عن ذلك في الروض "وأما الإيجاز والاختصار فمنه ما يقال له الاكتفاء" وهو أن يكتفي بأحد المتلازمين من الآخر فيحذف الجواب في الشرطيات كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد 31) كأنّه قال: "لكن كذا"، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر 7)؛ كأنّه قال لأقلعتم عن باطلكم، وكقولهم: "إنّ مالا وإنّ ولدا" فحذفوا الخبر، ويكتفى في الأشياء المتناسبة بذكر الطرفين ويحذف الوسطين فيكتفى بالمقدّم من إحدى النسبتين.

4- أثر المنطق في فكر ابن البناء البلاغي:

يتجلى أثر المنطق في فكر البناء البلاغي، حيث يقول: "ويحذف الوسطان ويكتفى بالمقدم من إحدى النسبتين وبالتالي من الأخرى، لأن الطرفين حاصران للوسطين ويدلآن عليهما لأجل ارتباط التناسب"¹³، فهو يربط بين الحذف ومبدأ مشكلة التناسب، ويستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ (الأنبياء 5)، ويشرح ذلك بقوله: فنسبة إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى إتيانه بآية كنسبة إرسال الأولين إلى إتيانهم بالآيات، فاكتمى من المقدمة الأولى المتقدمة في الذكر بتاليها ومن الثانية بمقدمها، وفي رأيه يجب - تطبيقاً لمبدأ المشكلة في التناسب - أن تكون الثانية في الخطاب هي الأولى في التناسب لثبوت مقدمها وهو الطرف الأول، وتكون الأولى في الخطاب، هي الثانية في التناسب لثبوت تاليها وهو الطرف الأخير، ويدل على هذه المشكلة في نظام التناسبية حرف التشبيه في قوله تعالى: "كما أرسل الأولون"، فإن نظام المشبه به سابق عن المشبه، وإنما يقدم المشبه في اللفظ لأنه موضع الحاجة والاهتمام به، فكان من البلاغة تقديم النسبة الثانية على الأولى لفظاً، والحذف فيهما قرينة تدل على كل واحدة منهما معنى، وقد أدت فيهما العبارة المختصرة عن المعنى بكامله، فهو بهذا في رأيه من الطبقة العليا في الكلام¹⁴، فابن البناء بهذا الأسلوب يستخدم المنطق كآلية لخدمة اللغة العربية، لأن مقصديته في الإيجاز عنده تتضح بأنه يقوم على تقليل اللفظ وتكثير المعنى، وهو ما يتفق مع ما جاء عند ابن الأثير: "هو حذف زيادات الكلام قصداً للبلاغة، والإتيان بالمعنى الكثير باللفظ القليل ليكون للكلام حلاوةً وعليه بالإيجاز طلاوة"¹⁵، وهذا هو المفهوم الشائع عند علماء الدرس النقدي والبلاغي¹⁶.

5- الإيجاز عند النقاد العرب القدامى:

5-1 ابن الإصبع المصري: يقول ابن الإصبع المصري في بديع القرآن عن الإيجاز: "الإيجاز اختصار بعض الألفاظ ليأتي الكلام وجيزاً من غير حذف لبعض الاسم كحذف المضاف أو لبعض الجملة كحذف الفاعل أو حذف الخبر أو بالعدول عن لفظ المعنى كالإرداف وشبهه أو بتغيير لفظ المعنى كالاستعارة وغيرها... وعندي أن الإيجاز على قسمين: قسم مجازي وقسم حقيقي، فما كان حقيقياً بقي عليه اسم الإيجاز وما كان مجازياً وضعوا لكل نوع منه اسم يخصه ويناسب اشتقاقه"¹⁷، وقد سيطر عليه الفكر المنطقي في تفسير أوجه الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وما فيه من أوجه حذف وقد أفاض فيه.

5-2 ابن رشيق القيرواني: ويأخذ ابن رشيق مفهوم الإيجاز عن الرماني فيقول: "الإيجاز عند الرماني على ضربين: مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقولك: "سل أهل القرية"، ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع كقوله تعالى: "واسأل القرية"، وعبر عن الإيجاز بأن قال: هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف، ونعم ما قال!، إلا أن هذا الباب متسع جداً ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة: فأما الضرب الأول فيسمونه المساواة ومن بعض ما أنشدوا في ذلك:

يا أيها المتحلي غير شيمته إنَّ التخلُّق يأتي دونه الخلق

ولا يواتيك فيما ناب من حدثٍ إلاّ أخو ثقةٍ فانظرُ بمن تتقُ

فهذا شعر لا يزيد لفظه على معناه ولا معناه على لفظه شيئاً .

والضربُ الثاني ممّا ذكر الرّماني ويسمّونه الاكتفاء كما في قول الله عزّ وجل: "واسأل القرية"، وهو داخل في باب المجاز، وفي الشعر القديم والمحدث منه الكثير، يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقي على الذهاب من ذلك قول الله عزّ وجل: "ولو أنّ قرآنًا سيّرت به الجبال أو كلّم به الموتى" كأنّه قال "لكان هذا القرآن" كما سبق، ومثله قولهم: "لو رأيت عليّاً بين الصّفين"؛ أي لرأيت أمراً عظيماً وإنّما كان هذا معدوداً من أنواع البلاغة لأنّ نفس السامع تتسع في الظنّ والحساب وكل معلوم فهو هيئاً لكونه محصوراً؛ وقال امرؤ القيس:

فلو أنّها نفسٌ تموتُ سويّةً ولكنّها نفسٌ تساقطُ أنفُساً

كأنّه قال لهان الأمر، ولكنّها نفسٌ تموت موتاتٍ¹⁸ .

3-5 أبو عمرو بن حبوب الجاحظ: وتتجلّى جمالية الإيجاز عند الجاحظ في قوله: "وأحسنُ الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره"¹⁹ . ونظراً لولوع العرب بهذه الصفة اهتم البلاغيون بأسلوب الإيجاز ووضعوا له حدوداً وأقساماً وبيّنوا مواضعه، لأنّه ليس محموداً في كلّ موضع ولا بمختار في كلّ كتاب بل لكلّ مقام مقال.

4-5 ابن قتيبة: أشار إليه ابن قتيبة بقوله: "لو كان الإيجاز محموداً في كلّ الأحوال لجرّده الله في القرآن ولم يفعل ذلك ولكنّه أطال تارةً للتوكيد وحذف تارةً للإيجاز وكرّر تارةً للإفهام"²⁰، ومعنى ذلك أنّه لا ينبغي الإفراط في الإيجاز بل يجب مراعاة شروطه، فقد قال ابن جنيّ عن ذلك: "إنّ الإطالة والإيجاز هما في كلّ كلامٍ مستقلّ بنفسه ولو بلغ الإيجاز غايته لم يكن له بدٌّ من أن يعطيه تمامه وفائدته مع أنّه لا بدّ فيه من تركيب الجملة فإنّ نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسانٌ ولا استعذابٌ" وقال: "إنّ العرب إلى الإيجاز أميلٌ وعن الإكثار أبعد"²¹، وهو ما يدلّ على ضرورة الابتعاد عن الإغراق والمبالغة فيه وضرورة تجنّبه إذا لم يف بالغرض المقصود وهو إيصال المعنى بأقصر لفظ.

5-5 أبو هلال العسكري: يؤكّد أبو هلال العسكري على: "إنّ الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوعٍ منه ولكلّ واحد منهما موضعٌ فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه فمن أزال التدبير بعد ذلك عن وجهته واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ"²²؛ ومعنى ذلك أنّ لكلّ من الإيجاز والإطناب مواضع يستعملان فيها حسب مناسبة كلّ منهما لذلك فقد يكون الإطناب في موضع أحسن من الإيجاز فيه.

6-5 ابن سنان الخفاجي: وسمّاه ابن سنان الإشارة وقال عنه: "هو أن يكون المعنى زائداً عن اللفظ"²³؛ أي أنّه لفظ موجز يدلّ على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة.

وهذه التعريفات لا تخرج عن القول بأنّ الإيجاز هو التعبير عن المعنى الكثير بألفاظ قليلة تدلّ عليه دلالة واضحة.

6- أنواع الإيجاز:

6-1 إيجاز التقدير: وهو ما ساوى لفظه معناه، وقد ذكر ابن الأثير القسم الأول الذي لا يحذف منه شيء، وسمّاه ابن مالك "إيجاز التضييق"، وذكر السيوطي هذه التسمية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ (عبس 17-23)، فقوله: "قَتَلَ الْإِنْسَانُ" دعاء عليه وقوله: "ما أكفره" تعجب من إفراطه في الكفران بنعمة الله عليه، ولا ترى أسلوباً أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أحسن حسناً، ولا أدلّ سخطاً من تقارب طرفيه، ولا أجمع للائمة على قصر متنه، ثم أنّه أخذ في صفة حاله من ابتداء حدوثه إلى منتهى زمانه، فقال: "من أيّ شيء خلقه"، ثم بيّن الشيء الذي خلق منه: "من نطفة خلقه"، "فقدّره"؛ أي هيّأه لما يصلح له، "ثم السبيل يسّره"؛ أي سهّل سبله وهو مخرجه من بطن أمّه أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريقي الخير والشرّ، والأوّل أولى لأنّه تالٍ لخلقته وتقديره، ثمّ بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريقي الخير والشرّ، ثم "أماته فأقبره"، أي جعله ذا قبر يوارى فيه"، ثم إذا شاء أنشره؛ "أي أحياه"، "كلّا"، ردّع للإنسان عمّا هو عليه، "لما يقضي ما أمره"؛ أي لم يقض ما تطاول زمانه ما أمره الله به؛ يعني أنّ إنساناً لم يخل من تقصير قطّ. ألا ترى إلى هذا الكلام الذي لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة ما استطعت لأنك تذهب بجزء من معناه والإيجاز هو أن لا يمكنك أن تسقط شيئاً من ألفاظه²⁴.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو عبد الله بن بشير بن سعد الأنصاري وقد حدّث به مشيراً إلى أذنيه حيث قال: سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم بأذني يقول الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإنّ لكلّ ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّ، ألا وهي القلب" (رواه البخاري ومسلم)، وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة وذلك لأنه يشمل على جلّ الأحكام الشرعية، فإنّ الحلال والحرام إمّا أن يكون الحكم فيهما بيّناً لا خلاف فيه بين العلماء وإمّا أن يكون خافياً تتجاذبه التأويلات فكل منهم يذهب منه مذهبا.

6-2 الإيجاز الجامع: وقد ذكرها الطيبي في التبيان ونقله عنه السيوطي وقال: "هو أن يحتوي اللفظ على معاني متعدّدة"²⁵، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل 90)؛ فإنّ العدل هو الصراط المستقيم المتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط الموصي به إلى جميع الجماعات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية، و"الإحسان" هو الإخلاص في واجبات العبودية.

6-3 إيجاز القصر: وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وكان الجاحظ قد أشار إليه: "وهو الكلام الذي قلّ عدّد حروفه وكثّر عدّد معانيه"²⁶، فالتركيز على قلة اللفظ بالمقارنة مع سعة المعنى سمة اتفق عليها البلاغيون في وسم

الإيجاز، وأشار الجاحظ إلى كتابه الذي جمع فيه آيات من القرآن الكريم ليعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وما بين الزوائد والفصول والاستعارات فقال: "إذا قرأها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع في المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبه لك في باب الإيجاز وترك الفضول، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة:

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ (الواقعة 19)، وهاتان الكلمتان قد جمعت جميع عيوب خمر أهل الدنيا، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة

فقال: ﴿مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة 33)، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني²⁷. ويرى ابن الأثير أنّ التنبيه لهذا النوع من الإيجاز عسير لأنّه يحتاج إلى فضل تأمل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وتظهر جمالية الإيجاز وروعته في هذه الآية الكريمة حينما تقارن بقول العرب: (القتل أنفى للقتل)، ويتضح ذلك عنده في ثمانية وجوه، وقد قسم الإيجاز بالقصر إلى نوعين:

الأول: ما دلّ لفظه على احتمالات متعدّدة ويمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدّها ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى فَاتَّبِعْهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُنُّهُمْ فَمَنْ يَمْنُ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (طه 77-79)، فقوله: "غشيه من اليمّ ما غشيه"، من جوامع الكلم التي يستدل على قلّتها بالمعاني الكثيرة أي غشيه من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله، ولا يحيط به غيره.

ومنه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف 199)، فجمع في الآية جميع مكارم الأخلاق لأنّ الأمر بالمعروف صلة للرحم، ومنع اللسان عن الغيبة والكذب، وغض الطرف عن المحرمات، وغير ذلك وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما. ومنه قول الشاعر السموأل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الشاء سبيل

فقد اشتمل البيت على مكارم الأخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك لأنّ هذه الأخلاق كلّها من ضيم النفس لأنّها تجد بحملها ضيما أي مشقّة وعناء.

الثاني: ما دلّ لفظه على احتمالات متعدّدة لا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدّها بل يستحيل ذلك وهو أعلى طبقات الإيجاز ومنه قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة"، الذي فاق كلّ كلام وفضل غيره من كلام العرب²⁸.

4-6 إيجاز الحذف: وهو كثير في القرآن الكريم، فقد اتفق العقلاء والعلماء والباحثون والمنصفون على أنّ القرآن الكريم معجز، ولكنهم اختلفوا في تحديد وجوه الإعجاز وتعيين مواضعه، وبيان أسرارها، وإدراك الخصائص التي امتاز بها القرآن الكريم على سائر كلام البشر، فقالوا أنّ من مظاهر إعجازه الإيجاز بالحذف²⁹، وقد سمّاه أبو عبيدة: "بجاز المختصر"³⁰، وسمّاه الجاحظ "الإيجاز المحذوف"، وسمّاه "الكلام المحذوف"³¹؛ وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف أو هو كما قال ابن الأثير: "ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه عن لفظه"³²، وقال: "وأما الإيجاز بالحذف فإنّه عجيب

الأمر أشبه بالسحر وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجذك أنطق مما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبيّناً إذا لم تبين، وهذه جملة تنكرها حتى تحبرها وتفهمها عن تنظّر، والأصل في المحذوفات جميعاً على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن³³.

وجاء عنه في الروض المربع: "ومنه ما يقال له الحذف وهو أن يقتصر على عمدة الكلام ويحذف منه ما هو فضلة أو كالفضلة لدلالة السياق عليه"³⁴، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر 3)، فالواقع عليه العلم متروك كأنه قال "عاقبة أمركم" لأن سياق القول التهديد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان 41)، فحذف العائد من الصلة لأنه بين بعثه، وقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب 6)، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وقوله تعالى: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم 4-5)، حذف المضاف إليه ودلالة السياق قاطعة به.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 2)، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه وذلك يكون حيث يكون الاعتماد على الصفة وهي مبهمة، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (الكهف 105)، أي وزنا نافعا، فحذف الصفة وذلك يكون حيث يقصد تعظيم الأمر حتى يكون ذلك النوع من الجنس كله في الاعتبار... ومواقع الحذف كثيرة³⁵.

فال حذف بهذا الشكل عند ابن البناء يعتبر من آليات النحو الذي يقوم سلّمه التركيبي على عمد وفضلات، فإسقاط العمدة يسمى اكتفاء كما تقدّم، أما إسقاط الفضلات فيسمى حذفاً كالصفة والموصوف والمضاف والمضاف إليه، وهو في شواهد القرآن الدالة على ذلك، يتفق مع أغلب ما سبق ذكره. ويشير إلى أنّ مواقع الحذف كثيرة، وفي ذلك دلالة واضحة على سعة اطلاعه على آراء العلماء قبله في الموضوع واستخلاصه زبدة ذلك وتفرد به بالرأي في بعضه أحياناً.

وقد تناوله ابن رشيق في باب الإشارة فقال: "ومن الإشارات الحذف نحو قول نعيم بن أوس يخاطب امرأته:

إِنْ شِئْتَ أَشْرَفْنَا جَمِيعًا فَدَعَا اللَّهَ كُلُّ جَهْدُهُ فَأَسْمَعَا

بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَافْلا أُرِيدَ الشَّرُّ إِلَّا أَنْ تَا

قالوا يريد إن شرّاً فشرّ وإلا أن تشائي. وأنشدوا:

ثمّ تنادوا بعد تلك الضوضا منهم بهات وهل ويايا

ادى منادٍ منهم ألا تآ قالوا جميعاً كلُّهم: بلى فا وأنشد الفراء قلت لها: قوى، فقالت: "قاف" يريد قد قمت³⁶.

5-6 أدلة الحذف وأنواعها:

النوع الأول: ما يدلّ العقل على حذفه والمقصود الأظهر على تعيينه وله مثالان: أحدهما قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ (من الآية 3 من سورة المائدة)، وثانيهما: وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (من الآية 23 من سورة النساء)، والمقصود الأظهر يرشد إلى أنّ التقدير حرّم عليكم أكل الميتة، وحرّم عليكم نكاح أمهاتكم، لأن الغرض الأظهر من هذه الأشياء أكلها والغرض الأظهر من النساء نكاحهن، فتحريم الميتة تحريم لأكلها، وتحريم الخمر تحريم لشربها وتحريم الحرير تحريم لاستعماله، وكذلك تحريم أواني الذهب والفضة وتحريم الصدقة في قوله عليه السلام: "لا تحل الصدقة لمحمد ولا لآل محمد"، وفي قوله: "لا تحل الصدقة لغني"، والصدقة هنا الزكاة لأنّ صدقة التطوّع لا تحرم على الغني.

وقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء 160)، أي حرّمنا عليهم أكل طيبات أو تناول طيبات أحلّ لهم أكلها، و﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ﴾ (من الآية 30 من سورة الحج) تقديره أحلّ لكم أكل لحوم الأنعام، وفي الحديث: "اللهم إنّ إبراهيم حرّم مكة وإني حرّمْتُ المدينة"؛ معناه: اللهم إنّ إبراهيم حرّم صيد مكة وإني حرّمْتُ صيد المدينة.

وكذلك تحريم الأموال والدماء والأعراض تحريمٌ لما يتعلّق بها من الأفعال؛ فقوله صلى الله عليه وسلّم: "فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام"؛ تقديره فإنّ سفك دمائكم وغصب أموالكم وتلب أعراضكم عليكم حرام³⁷.

النوع الثاني: من الحذف ما يدلّ عليه العقل بمجردّه وله أمثلة:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر 22) وتقديره وجاء أمر ربك أو عذاب ربك أو بأس ربك.

وثانيها: قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة 210) ' تقديره ما ينظرون إلّا أن يأتِيهم عذاب الله أو أمر الله في ظلل من الغمام.

ثالثها: قوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (من الآية 2 من سورة الحشر) تقديره فأَتَاهُم أمر الله أو عذاب الله من حيث لم يحتسبوا.

رابعها: قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (من الآية 26 من سورة النحل)؛ التقدير فأَتَى الله بنياهم أو أفلح بنياهم من القواعد.

الثالث من أنواع أدلة الحذف: ما يدلّ عليه الوقوع وله مثالان:

أحدهما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ (من الآية 6 من سورة الحشر) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى تقديره وأي شيء أفاء الله على رسوله من أموالهم، ويدل على هذا المحذوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يملك رقاب بني النضير ولم يكونوا من جملة الفبيء وإن الذي أفاء الله عليهم إنما كان أموالهم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ﴾ (من الآية 6 من سورة الحشر) تقديره فما أوجفتكم على أخذه أو على حيازته أو اغتنامه أو تحصيله، فيقدر من هذه المحذوفات أخفها وأحسنها³⁸.

6-6 دلالة الحذف: للحذف دالتان:

الأولى: ما ذكره البلاغيون في باب الإيجاز والحذف وقد تقدّم.

الثانية: ما ذكره علماء البديع المتأخرون، حيث يقول الوطواط: "وتكون هذه الصنعة بأن يطرح الشاعر أو الكاتب حرفاً أو أكثر من حروف المعجم من نثره أو نظمه"³⁹، ومثاله ما يروونه من أنّ واصل ابن عطاء كان يلثغ بالراء فقيل له كيف تقول "اطرح رمحك واركب فرسك"؟، فقال: "ألق قناتك واعل جوادك"، وهذا ما أشار إليه الجاحظ من اطراح واصل ابن عطاء لحرف الراء⁴⁰.

ومن أمثلة بديع الحذف قول الحريري في مقدمة الخطبة التي أوردتها في مقاماته وقد حذف منها كل الحروف المنقوطة: "الحمد لله الممدوح الأسماء، المحمود الآلاء، الواسع العطاء، المدعو لحسم الأدواء..."، وحذف الحريري جميع الحروف المنقوطة من الأبيات:

أعدّ لحسادك حدّ السلاح وأورد الأمل وردّ السماح
وصارم اللهو ووصل المها وأعمل الكوم وسمّر الرماح
واسع لإدراك محل سما عماذه لا لأدراع المراح
والله ما السؤدد حسو ولا مرأؤ الحمد رود رداح

وقال عنه الحموي: "هذا النوع - أعني الحذف - عبارة عن أن يحذف المتكلم من كلامه حرفاً من حروف الهجاء المهملة بشرط عدم التكلف والتعسف وهذا هو الغاية كما فعل الحريري في المقامة السمرقندية بالخطبة المهملة التي أجمع الناس على أنّها نسيج وحدها وواسطة العقد"⁴¹، وقد نبّه إلى ذلك الرازي في نهاية الإيجاز⁴².

7- اعتبار الحذف من البديع: وقد اعتبر المدني وذكر أنّ هذا النوع من مستخرجات الإمام أبي المعالي عزّ الدين عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني صاحب معيار النظر⁴³، ومن أمثلة هذا النوع البديعي قصيدة الصاحب إسماعيل بن عباد في مدح آل البيت - عليهم السلام - وهي في سبعين بيتاً وقد عرّاه من حروف الألف ومطلعها:

قد ظلّ يجرّج صدري من ليس يعدّوه فكري

وقصيدة أبي الحسن علي بن الحسين التي أخلاها من "الواو" ومطلعها:

برق ذكرث به الحباب لما بدّا فالدمع ساكب

ويأتي الحذف عند السجلماسي تحت جنس الإيجاز وهو عنده: "قولٌ مركَّبٌ من أجزاءٍ فيه مشتملةٌ بجملتها على مضمون تنقص عنه بطرح جزءٍ منها هو فضلةٌ أو في حكم الفضلة في الاقتران لإفادة ذلك المضمون"⁴⁴، وهو بذلك لا يختلف مع ابن البناء في المفهوم، لكنّه يجزّئه بعد ذلك إلى جزئين:

أ-الإطلاق: حذف الفضلة الواقعة في هذا القول هو حذف القيد المسمى مفعولا به وساغ حذفه لأنه فضلة يستقل القول دونها على ما تقرّر في النحو⁴⁵.

ب-الانتهاك وهو حذف ما يجري مجرى الفضلة كالمضاف إليه والصفة والموصوف⁴⁶

ولا بد في الإيجاز بالحذف عنده من توفر أدلة الحذف وهي كثيرة منها:

-أن يدل العقل على المحذوف والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف.

-أن يدل العقل على الحذف والتعيين.

-أن يدل العقل على الحذف والعادة على التعيين.

-أن تدل العادة على الحذف والتعيين.

-الشروع في الفعل.

-اقتران الكلام بالفعل.

والمحذوف نوعان:

-حذف جزء من الجملة وهو حذف المفردات ويكون على صور مختلفة (حذف الفاعل، حذف الفعل وجوابه، حذف

المفعول، حذف المضاف، حذف الموصوف أو الصفة، حذف الشرط).

-حذف الجمل غير المفيدة وحذف الجمل التي تستقلّ بنفسها كالما وهو أحسن المحذوفات وأدّ لها على الاختصار.

وجملة هذين النوعين أربعة أضرب:

-حذف السؤال المقدّر وسمي الاستئناف.

-الاكتفاء بالسبب عن المسبب.

-الإضمار على شريطة التفسير.

-ما ليس بسبب ولا مسبب.

وعزّف السكاكي عن تعريف الإيجاز والإطناب لأتّهما من الأمور النسبية التي تختلف من شخص لآخر، واعتبر متعارف الأوساط مقياساً لذلك قائلاً: "فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط والإطناب هو أدائه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة والكثرة راجعة إلى الجمل أو غير الجمل"^{xlvi}. ولم يعتبر عبد القاهر الجرجاني قلة اللفظ وكثرته مقياساً للإيجاز بل أشار إلى أنّه "لا معنى للإيجاز إلا أن يدلّ بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وإذا لم تجعله وصفاً للفظ من أجل معناه أبطلت معنى الإيجاز"^{xlvi}، فهو لا يقبل إطلاق الإيجاز صفة للفظ دون المعنى لأنّه يؤمن بشائية اللفظ والمعنى، فالإيجاز في اللفظ لا بدّ أن يتبعه إيجاز في المعنى.

ويتّضح مفهوم الجرجاني للإيجاز أكثر في قوله: "إنّ العاقل إذا علم ضرورة أنّه لا سبيل له أن يكثر معاني الألفاظ أو يقلّها، لأنّ المعاني المودعة في الألفاظ لا تتغيّر على الجملة عمّا أراده واضع اللغة، وإذا ثبت ذلك ظهر أنّه لا معنى لقولنا: "كثرة المعنى مع قلة اللفظ"، غير أنّ المتكلم يتوصلّ بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد لو أنّه أراد الدلالة عليها باللفظ لاحتاج إلى لفظ كثير"^{xlvi}، وبهذه النظرة الفنية يخالف عبد القاهر الجرجاني من سبقه من النقاد وممن أتى بعده ممن يرون أنّ الإيجاز يكمن في قلة اللفظ وكثرة المعنى، فالمعاني والألفاظ لا مجال فيها للزيادة ولا للنقص، وإتّما قد يتوصّل الأديب بمعاني الألفاظ إلى معاني أخرى تحتاج لو لم يصل لها بطريقة أدائه إلى ألفاظ توازيها في الكثرة¹، فالأسلوب وطريقة الأداء اللفظي هي التي تتحكم في المعاني وليس قلّتها أو كثرتها.

8- خلاصة: ألفينا ابن البناء من خلال هذا البحث يرى بأنّ فائدة الإيجاز تتجلى في التخفيف على النفس، فبعد أن يحدّد مفهومه للإيجاز يجيب عن تساؤل يدور في ذهن المتلقي وهو ما الفائدة من الإيجاز؟ ولم الحفاوة به؟، فيقول: "إنّه متى كانت المعاني بيّنة بنفسها أو بقرينة من السياق أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعاً لأجل التخفيف على النفس، لأنّ الألفاظ غير مقصودة لذاتها إنّما هي لإيصال المعاني إلى النفس، فإذا وصلت النفس إلى المعنى بغير اللفظ كان اللفظ زائداً فيثقل، لاسيّما إن كانت النفس ترى أنّ لها في الوصول إلى المعنى خصوصية وشرفاً لا على غيرها فإنّها تُسرّ بذاتها لأنّها قد بلغت إلى المقصود من غير طول"^{li}، وقد تحدّث عن هذا في معرض بيانه عن أقسام الكلام.

ومن تتبّعنا لآراء ابن البناء في الإيجاز وجدناه يدعو كذلك إلى ضرورة مراعاة التقنية الأسلوبية للإيجاز المتمثلة في وجود القرينة الدالة على المعنى المحذوف لتحقيق القيمة الفنيّة له والتي تتجلى في شعور المتلقي اكتساب الخصوصية والشرف لوصوله إلى المقصود بدون إطالة للفكر، فابن البناء بهذا ينظر إلى البعد النفسي للكلام الموجز المختص، وهو بذلك يدعو لأنّ "يشارك السامع المتكلم في تكملة الكلام، وبيان المراد والإشارة إلى الشيء من بعيد تستدعي عمل الفكر"^{lii} وهذا ما ذهب إليه الجاحظ في قوله: "المفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل".

كما ألفيناه يحدّر بعد ذلك من الإفراط في الإيجاز لأنّه مدعاة للغموض الذي يسبب إشكالا في فهم المعاني وإدراكها.

وفضلاً عن اهتمام ابن البناء بالإيجاز كفن فهو منهجه في الحديث وفي مؤلفاته العلمية إذ يتجلى ذلك في قوله:

فَصَدْتُ إِلَى الْوَجَازَةِ فِي كَلَامِي لِعَلِّي بِالصَّوَابِ فِي الْإِخْتِصَارِ
وَلَمْ أَحْذَرْ فَهوماً دُونَ فَهْمِي وَلَكِنْ خَفِضْتُ إِزْرَاءَ الْكِبَارِ
فَشَأْنُ فَحُولَةِ الْعُلَمَاءِ شَأْنِي وَشَأْنُ الْبَسْطِ تَعْلِيمُ الصِّغَارِ^{liii}.

وجهود ابن البناء في الإحاطة بالإيجاز وأنواعه مستمرة ، فلم يكتف بالتعريف وذكر الشواهد، بل يرى الباحث ظلال ثقافته اللغوية على فكره البلاغي، ويلحظ تأثره بأوائل اللغويين وعلماء البلاغة في اعتبار الحذف مجازاً، فقد قام بتعريف المجاز وقسمه قسمين: عام وخاص وذكر أنّ الحذف من أنواع المجاز بعموم^{liv} ، وهو بهذا يلتقي مع سيبويه وابن جني إذ يرد عندهما من ضمن أنواع المجازات التي نسبها ابن جني "إلى شجاعة العربية وهي عنده ما ترتب على المحذوفات والزيادات والحمل على المعنى والتحريف وكل ما له صلة بالتصرف في نظام الجملة"^{lv} كما يتجلى تسلّحه الواضح بالمنطق في استعراض أنواع الاكتفاء وربط ذلك بنظام المناسبة وما فيها من مقدمات وتوال ومشكلة .

وخلاصة ما ذكره ابن البناء في آخر حديثه عن الحذف أنّ مواطنه كثيرة؛ وذلك نابع من إدراكه لما تفرضه اللغة الطبيعية التي لا تخضع لقواعد ولا لقوانين يمكن حصرها، ويبدو أنّ السبب في ذلك "لأنّها ليست تقعيدياً منطقياً، وإنّما هي مواقف يدركها الدارس من الموقف كلّ، وعليه أن يستشف العطاء الفنيّ لنسق التركيب من داخل العمل نفسه ومن بنيته الفنية الخاصة به"^{lvi} ، لا من تحديد مواطنه.

هوامش البحث:

- ¹ ينظر بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني: دراسة تاريخية وفنية، مؤسسة المختار القاهرة، ص: 233.
- ² ينظر: عبد القادر محمد مايو، الفصاحة والبلاغة، مراجعة وتحقيق أحمد عبد الله فرهود، دار القلم حلب سوريا، د.ط، د.ت، ص: 12.
- ³ ابن البناء المراكشي ، الرّوض المربع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون ص 87
- ⁴ تكشف نظرة ابن البناء لطبيعة التلقي في هذا السياق عن تشابه واضح بين ما يقرّره ، وما يسعى النقد الحديث إلى تأصيله في إطار نظرية التلقي، فقد تنبه هذا الناقد إلى تعدّد مستويات التلقي وتباينها، وألح في سياق ذلك على أنّ تلقي النص -بما أنّه تكوين لغوي- يختلف من متلقٍ لآخر، ويستند مبرّر هذا الاختلاف بالأساس إلى خضوع فعل التلقي لشروط موضوعية منها خارجية تتعلّق بالزمان والمكان ووضعية فعل التواصل، وأخرى داخلية تتعلّق بوضعية المستقبل الاجتماعية والنفسية؛ وهكذا تصبح كلّ عملية للتلقي مقترنة بدرجة نشاط المتلقي ومستوى فهمه وإدراكه الإرسالية (عن التأثير والتلقي، كونتر جريم، ترجمة أحمد المامون، مجلّة دراساتٍ لسانية، أدبية لسانية، عدد 7، 1992 ص 18).
- ⁵ ينظر: بن يامنة سامية ، مجلّة اللغة والاتصال: سياق الحال عند البلاغيين، مقارنة تداولية، جامعة مستغانم، العدد 12، السنة 2012، ص: 64.
- ⁶ ينظر: ، عبد القادر محمد مايو الفصاحة والبلاغة، مراجعة وتحقيق أحمد عبد الله فرهود، دار القلم حلب سوريا، د.ط، د.ت، ص: 12.
- ⁷ العسكري الصناعيتين ، ص: 173.
- ⁸ المصدر نفسه، ص: 174.
- ⁹ الجاحظ البيان والنبين، ج. 2، ص: 28.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ج. 1، 96.

- ¹¹ ينظر، محمد بن عبد العزيز الدباغ، من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مكتبة الأمة الدار البيضاء، المغرب، ط.1، ص:71.
- ¹² ابن البناء الروض المريع، ص:87.
- ¹³ ابن البناء، الروض المريع، ص:143.
- ¹⁴ الروض المريع، ص:144.
- ¹⁵ ابن الأثير الحلبي، جواهر الكنز، تح. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، د.ت، ص:234.
- ¹⁶ ينظر سر الفصاحة، لابن سنان، ص:197.
- ¹⁷ ابن الإصبع المصري بديع القرآن، ص:180 وقد أفاض فيه.
- ¹⁸ ينظر:، ابن رشيق العمدة، ج.1، ص:251.
- ¹⁹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص:83.
- ²⁰ ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص:15.
- ²¹ ابن جني، الخصائص، ج.1، ص:30-83-86.
- ²² العسكري، الصناعتين، ص:190.
- ²³ ابن سنان، سر الفصاحة، ص:243.
- ²⁴ ابن الأثير المثل السائر، ج.2، ص:115.
- ²⁵ السيوطي شرح عقود الجمان، ص:69.
- ²⁶ الجاحظ، البيان والتبيين، ج.2، ص:16.
- ²⁷ الحيوان، الجاحظ، ج.3، ص:86.
- ²⁸ للعسكري، الصناعتين، ص:175.
- ²⁹ ينظر: د. مصطفى شاهر خلوف، أسلوب الحذف في القرآن الكريم وأثره في المعاني والإعجاز، دار الفكر الأردن، ط.1، 2009، ص:151.
- ³⁰ أبي عبيدة، مجاز القرآن، ج.2، ص:98.
- ³¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج.2، ص:278.
- ³² ابن الأثير، المثل السائر، ج.2، ص:78.
- ³³ المصدر نفسه، ج.2، ص:81.
- ³⁴ ابن البناء، الروض المريع، ص:146.
- ³⁵ ابن البناء، الروض المريع، ص:146-147.
- ³⁶ ابن رشيق العمدة، ج.1، ص:310-311.
- ³⁷ ابن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص:3.
- ³⁸ ينظر: ابن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص:4.
- ³⁹ رشيد الدين محمد العمري المعروف بالوطواط، حقائق السحر ورقائق الشعر، ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة 1945، ص:166.
- ⁴⁰ الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص:14-16.
- ⁴¹ الحموي خزنة الأدب، ص:439.
- ⁴² الرازي، نهاية الإيجاز، ص:22.
- ⁴³ ينظر: المدني، أنوار الربيع، ج.6، ص:176.
- ⁴⁴ أبو القاسم السجلماسي المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص:201.
- ⁴⁵ المصدر نفسه، ص:201.
- ⁴⁶ المصدر نفسه، ص:204.
- ^{xlvi} السكاكي، مفتاح العلوم، ص:338.
- ^{xlvi} الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:463.

^{xliv}المصدر نفسه، ص: 464.

^lحامد الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1416هـ، ص: 232.

^{li}ابن البناء، الروض المريع، ص: 83.

^{lii}عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر، ص: 11.

^{liii}ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ الأعلام بفاس، دار المنصور للوراقة والطبع، دط، الرباط 1973، ج. 1، ص: 152.

^{liv}ابن البناء، الروض المريع، ص: 163.

^{lv}عبد العظيم المطعني، المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع: عرض وتحليل ونقد، مكتبة

وهبة، القاهرة، ط. 1993، 2، ص: 101.

^{lvi}رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، دار المعارف الأسكندرية، ط. 3، د ت، ص: 19.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، تح. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالأسكندرية، د. ط، د. ت.
2. ابن البناء المراكشي ، الروض المريع في صنعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون.
3. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ الأعلام بفاس، دار المنصور للوراقة والطبع، دط، الرباط 1973، ج. 1.
4. الدين محمد العمري المعروف بالوطواط ، حقائق السحر ورقائق الشعر ، ترجمة د. ابراهيم أمين الشواربي، القاهرة 1945.
5. بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني: دراسة تاريخية وفنيّة، مؤسسة المختار القاهرة.
6. بن عبد العزيز الدباغ، من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مكتبة الأمة الدار البيضاء، المغرب، ط. 1.
7. بن يامنة سامية ، مجلّة اللغة والاتصال: سياق الحال عند البلاغيين، مقارنة تداولية، جامعة مستغانم، العدد 12، السنة 2012.
8. حامد الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1416هـ.
9. رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، دار المعارف الأسكندرية، ط. 3، د ت.
10. عبد العظيم المطعني، المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع: عرض وتحليل ونقد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. 2، 1993.
11. عبد القادر محمد مايو الفصاحة والبلاغة، مراجعة وتحقيق أحمد عبد الله فرهود، دار القلم حلب سوريا، د. ط، د. ت.
12. مصطفى شاهر خلّوف، أسلوب الحذف في القرآن الكريم وأثره في المعاني والإعجاز، دار الفكر الأردن، ط. 1، 2009.